

الصداقة في الله

سعادة

مقالة للشيخ الفاضل

محمد عثمان العنجري

- حفظه الله -



الأربعاء 28 رمضان 1444 الموافق 19 أبريل 2023

الصدّاقة في الله سعادة «رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمَّكَ»

▲ أخبرنا الله -تعالى- من قول أهل النار:

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

قال ابن عثيمين: الصديق من صدّقك الود؛ يعني: الصاحب الصادق في وُدّه يسمونه صديقًا، وهو أخص من الصاحب، فكل صديق صاحب، وليس كل صاحب صديقًا. وقال الشيخ: وأما الحميم فإنه القريب، أو أنه يبالغ في الصداقة، بحيث يحنو عليك.

▲ كان قتادة -رحمه الله- إذا قرأ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾

قال: يعلمون -والله- أن الصديق إذا كان صالحًا نفع، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع.

▲ قال الله -تعالى-:

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال الإمام الطبري: يقول -تعالى- ذكره- لنبيه محمد ﷺ: لو أنفقت يا محمد ما في الأرض جميعًا من ذهب وورق وعرض، ما جمعت أنت بين قلوبهم بحيلك، ولكن الله جمعها على الهدى فائتلفت واجتمعت؛ تقوية من الله لك وتأيدًا منه، ومعونة على عدوك.

▲ قلت: الصداقة الحميمة فضل ونعمة وعطاء من الله -تعالى-، وهي سلعة غالية ليس كل من يوفق لها وينال نعمتها وشرفها، قال -تعالى-: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

▲ والصدقة صفاء ونقاء وحكمة، وقوامها أن تحب لصديقك ما تحب لنفسك من الخير، بسخاء نفس وسلامة صدر وطهر قلب، مع إقالة عثرة وحسن قصد ووفاء ومسامحة وتحمل، وبلا لوم وكثرة عتاب، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

▲ وقال -تعالى-: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، نزع -تعالى- الغل من قلوبهم؛ أي: الحقد الكامن والعداوة والضغينة، لتتحقق الأخوة الصافية بقلب صحيح طاهر.

▲ قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»، وقال رسول الله ﷺ: «حرّم من المؤمن ثلاثاً: دمه، وماله، وأن يُظنَّ به ظنَّ السوء». سوء الظن هدم للأخوة، وهو مرض قلبي يقتل كل جميل، وينزع روابط الأخوة ويخلع جذورها، وقد قيل: من لم يحمل أخاه على حسن النية، لم يحمده على حسن الصنعة.

▲ والصديق الحميم طاهر القلب، لا يغتاب صاحبه قط، ولا ينصحه على شرط القبول إلا إذا كان الأمر من سخط الله، ولا يهب لصديقه على شرط المقابلة، قال -تعالى-: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

▲ والصديق النقي يحزنه ما يحزن صاحبه، كما قالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- عن حالها في حادثة الإفك: وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار -رضي الله عنها-، فأذنت لها، فجلست تبكي معي.

▲ والصديق بحق يُسعدُهُ ما يُسعدُ صاحبه، كما قال كعب -رضي الله عنه-: فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -رضي الله عنه- يَهْرُولُ، حَتَّىٰ صَافَحَنِي وَهَنَانِي... قال كعب -رضي الله عنه-: وَلَا أُنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

▲ قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «كلُّ مخموم القلب، صدوق اللسان» قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقيُّ النقيُّ، لا إثم فيه ولا بغي ولا غلّ ولا حسد».

▲ وقال رسول الله ﷺ: «ما تحابَّ الرجلانِ إلَّا كان أفضلُهُما أشدَّهُما حبًّا لصاحبه». وعن غيلان بن جرير قال: سمعت مطرفًا يقول: ما تحاب قوم قط في الله -عز وجل- إلَّا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه. فذكرت ذلك للحسن، فقال: صدق.

▲ وقال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه». وعن طلحة بن عبيد الله بن كريب قال: ما تحاب متحابان في الله إلَّا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبًّا لصاحبه، وإن مما لا يرد من الدعاء: دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب، وما دعا له بخير إلَّا قال الملك الموكل: ولك مثله.

▲ فالصداقة الحميمة القائمة على المحبة في الله شرف ورزق عظيم، أخبر رسول الله ﷺ:

«أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأُرْصِدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيَنْ تَرِيدُ؟

قال: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ.

قال: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟

قال: لا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ -عز وجل-.

قال: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ».

فالأخوة في الله عِبادة عظيمة يتقرب بها العبد إلى ربه، والحب في الله من أوثق عرى الإسلام.

▲ والصدقة الحميمة صفاء وطهر، لا تقوم على المنافع المادية، ولا على المصالح الدنيوية، ولا تكون مرحلة على الطريق.

▲ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ - تَعَالَى-».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ؟

قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا»، «من قبائل شتى، وبلاد شتى»، «هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله وتصافوا».

▲ قال عبد الله بن محمد البغوي: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: إذا مات أصدقاء الرجل ذلَّ.

▲ قال ﷺ: «الرجلُ على دينِ خليله، فليُنظرْ أحدكم من يُخالِلُ»، وقال ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة».

▲ والخلق طبائعهم وصفاتهم متباينة ومختلفة، ولذلك قال ﷺ: «الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

▲ فالمتشاكل والمتشابه يقع بينهم التآلف، عن فاطمة بنت قيس -رضي الله عنها- قالت: أتيتُ النبي ﷺ، فقلتُ: إِنَّ أَبَا الْجَهْمِ وَمُعَاوِيَةَ خَطْبَانِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُغْلُوكُ لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَلَا يَضَعُ الْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ -أي: كثير الأسفار-».

▲ قال إسحاق الأزرق: ما أدركتُ أفضل من خالد الطحان. قيل: قد رأيتَ سفيان -الثوري-؟ قال: كان سفيانُ رجلَ نفسه، وكان خالدُ رجلَ عامة.

▲ فعلى المرء أن يصاحب من يتجانس معه ويتطاول معه. والصحبة الحميمة في الله سعادة وسلوى ومروءة، قيامها على: البذل، والشكر، وطيب التعامل، ودماثة الخلق، وبشاشة الوجه، ورحابة النفس، وحلاوة اللسان، ورحمة القلب، ومحبة، ووفاء، وصبر على المكاره، وتحمل، ومجانبة الغضب والمؤاخذة. ولذلك هناك فرق بين التعارف وبين الصداقة الحميمة، فتنبه!

▲ قال ﷺ حين بعث أبي بن كعب ومعاذ بن جبل إلى اليمن: «تطاولا ولا تختلفا»، وقال ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروفِ شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق».

▲ وقال ﷺ: «المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ، والمؤمنُ أخو المؤمنِ يكفُّ عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»، و«إذا رأى فيه عيباً أصلحه». فالصاحب يرعى مصالح صاحبه في الله قربة لله -تعالى-، مع نقاء سريرة.

▲ وتقدم قوله ﷺ: «ما تحابَّ الرجلانِ إلا كان أفضلُهُما أشدَّهُما حُبًّا لصاحبه»، وهذا الفضل ثقيل على قلب المحروم، والمحروم من لا صاحب له بحق في هذه الدنيا.

▲ فهنيئاً لمن حقق الأخوة في الله على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه؛ بلا مصالح مادية ولا مصالح معنوية، ووفى كلُّ منهما بلوازم الصداقة الصافية النقية.

▲ قال عبادة بن الصامت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَأْتُرُ عن ربه -تبارك وتعالى- يقولُ: «حُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَرَاوِرِينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ».

▲ قال -تعالى-: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، قال الطبري: وما يعطى دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا لله على المكاره والأمر الشاق، وقال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾ ولم يقل: وما يلقاه؛ لأن معنى الكلام: وما يلقى هذه الفعلة من دفع السيئة بالتي هي أحسن، وقوله: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يقول: وما يلقى هذه إلا ذو نصيب وجد له سابق في المبرات عظيم.

كتبه: الشيخ محمد عثمان العنجري

الأربعاء 28 رمضان 1444هـ

الموافق 2023/4/19